فعل المحيط بالانسان

يختلف الناس بعضهم عن بعض في اللون والقد والاخلاق والعادات وطرق المعيشة الى غير ذلك من الفروق التي تميز امة عن اخرى وشخصاً عن آخر . ويعزى نشوء هذه الاختلافات الى المؤثرات الخارجية والعوامل الطبيعية التي ما برحت تؤثر في الانسان من يوم وجد على وجه البسيطة

وليس من غرضنا الآن البحث عن الفروق الشخصية وما يجعل كل فرد من الناس مختلفاً عن كل فرد آخر بل بيان بعض الاحوال الطبيعية العمومية التي اثرت في بعض الامم فاكسبتها صفات مخصوصة تميزها عن غيرها

وعلماء الانسان يقسمون امم الارض الى اجناس محدودة كالجنس السامي والجنس التوتوني مثلاً وهذه الاجناس تختلف بعضها عن بعض في صفات ومميزات خاصة كاستدارة القحف وشكل الوجه وبروز الخدين وهلم جرًّا . وقد نشأت هذه الاختلافات بتأثير المحيط الذي نشأ فيه كل من هذه الاجناس ولاجل ايضاح ذلك نورد الفقرة التالية من مقالة للاستاذ باتن احد اساتذة جامعة بنسلفانيا قال فيها « اذا سكنت امة في الجبال العالية واخرى في السهول الواطئة نشأ بينهما اختلافات بينة لاختلاف محيط كل منهما عن محيط الاخرى . فالذين يسكنون في الجبال ذات الهواء الجاف النقي المنشط لا تحتاج رئاتهم الى العمل الكثير ولكن البرد وصيد الحيوانات ورعاية المواشي تجعلهم اقوياء قادرين على احتمال المشاق . ويكون طعامهم في الغالب صلباً جافًّا يقتضي المضغ الكثير وهذا مما يقوي الاقسام السفلى من وجوههم وينمي عضلاتها ويترتب على ذلك صغر معدهم وجودة هضمهم ونقاوة دمهم . ونتيجة هذه العوامل كلها ان سكان تلك الجبال يصبحون طوال القامة خماص البطون مختلفين تمام الاختلاف عن الذين يعيشون في السهول الواطئة الذين يصيرون قصار القامة عريضي الاكتاف . ويصحب هذه التغيرات تغيرات اخرى لا تظهر في جميع افراد الامة ولكنها تظهر في كثير منهم وكثرة ظهورها دليل على انها تنشأ عن اسباب مخصوصة تعمل في الكل »

وقال بعد ذلك في فعل المحيط بالاخلاق « والعفة والاقتصاد والاعتدال في المآكل والمشرب قد تنقلب الى اضدادها في الانسان الواحد اذا انتقل من محيط الى محيط آخر او اذا تغير المحيط حوله . وقد تظهر هذه الصفات في افراد العائلة الواحدة حتى يخيَّل لنا انها

وراثية فيهم يتوارثها الاولاد عن الآباء لكن اذا نقلت احدهم الى محيط جديد تبيّن لك فساد هذا الاعتقاد . ومدنية كل امة وعاداتها لا يبقيها على مرور الايام الاّ بقاء المحيط الاجتماعي والمعاشي الذي ينشأ فيه ابناؤها . وفي محيط كل امة قوّى تضطر كل شيء جديد ان يسير في اثر اسلافه الاقربين ويعمل اعمالهم ويفتكر افكارهم قبل ان يصل الى درجة ارقى من الدرجة التي وصلوا اليها فاذا ضعفت هذه القوى ظهر الانحطاط في الامة »

وقد كان للمحيط شأن كبير في تكييف المدنية في كل امة قامت وكان لها نصيب منها. بل ان المدنية نفسها نتيجة احوال طبيعية خارجية فانها نشأت في اودية الفرات والنيل والكنج والياتسكيانغ حيث السهول الخصبة التي يجد فيها الانسان ما يحتاج اليه من القوت . فلما توفّر له في هذه الاودية ما هو محتاج اليه استوطنها وعدل عن التجول والترحال . ولما اتقن حراثة الارض حتى صارت تنتج اكثر مما يحتاج اليه صرف بعض قوته الى بعض الفنون ومقتضيات الحضارة كبناء البيوت الفاخرة وتزيينها

اما القبائل التي سكنت البراري القليلة النبات فقامت على تربية المواشي فكان لا بد لها من اتباع المراعي والتنقل بالقطعان من ارض الى اخرى فاختلفت طباعها عن طباع الامم المتحضرة وارتفع شان الفروسية والشجاعة لديها وذلك لحاجتها اليهما في الدفاع عن انعامها

والامم التي سكنت البلدان الحارة لم تقم على حراثة الارض ولا على رعاية المواشي لان الارض هناك تنبت كثيراً من الاشجار المثمرة ولان الحيوانات تكثر فيها ويسهل صيدها . زد على ذلك ان الانسان فيها لا يفتقر الى اللباس لحرارة الهواء فلم يعنَ سكانها بالصنائع كما عني غيرهم

وللمحيط تأثير كبير في نشوء الصناعة والتجارة والفنون وسيرها في طرق مخصوصة فمن عرف موقع فينيقية بين بحر كثير السمك والصدف وجبال تغطيها الحراج والاشجار رأى ان لا بد لسكانها من ان يبنوا السفن ويركبوا البحار ويتجروا مع الامم الاخرى ولاسيما بعد ان ضاقت طبيعتهم بلادهم

وقد كانت مدينة البندقية في ايطاليا ام البحار في القرون الوسطى فكانت مركز التجارة بين الشرق والغرب تروح سفنها وتجيء في البحر المتوسط والبحر الاسود وغربي اوربا وشمالها حتى استولى الترك على الشرق الادنى كله فقطعوا عنها تجارة البلدان الشرقية التي كانت القوافل تأتي بحاصلاتها الى موانئ البحر المتوسط والبحر الاسود ففقدت البندقية اهميتها التجارية

واحط شأنها . واهتم الغربيون باكتشاف طرق اخرى توصلهم الى الهند من غير ان يمروا ببلاد الترك فاكتشفوا اميركا وطريق رأس الرجاء الصالح وتحول معظم التجارة الى يد البرتغاليين لان موقع بلادهم يلائم ذلك . وما لبث الهولنديون ان غلبوا البرتغاليين على التجارة وكانت كثرة مغالبتهم البحر في طغيانه على بلادهم الواطئة سبباً في تهوين ركوبه عليهم وتذليلهم له

وللصنائع علاقة كبيرة بطبيعة البلاد وما تخرجه من الحاصلات فوجود دود القز في الصين رفعت شأن صناعة الحرير فيها . وكثرة الصوف في بلاد العجم دعت الاهلين الى حياكة البسط والسجاجيد والتأنق في صنعها حتى اصبحت على ما هي عليه من الجودة والشهرة . ووجود الحجارة الكريمة في بلاد الهند جعل اهلها يبرعون في قطعها وصقلها . ولولا وجود الرخام في بلاد اليونان لما برعت تلك الامة في البناء والنقش وعمل التماثيل

والصناعة في عصرنا تقتضي قوة كبيرة لادارة الآلات ولذلك كثرت المعامل في البلدان التي يكثر فيها الفحم الحجري والشلالات التي يمكن استخدام قوتها كما في بلاد الانكليز واميركا

ثم ان الاحوال الطبيعية تؤثر في حياة الامة فاما ان تقيها من الفاتحين فتصون عاداتها واخلاقها واما ان تجعلها عرضة لهم فتتكيف اخلاقها في كل عصر على ما يقتضيه المحيط . ومن الامثلة على الامم التي كانت بلادها سبباً في منعتها وحفظ عاداتها الهند فان البحر يحيط بها من ثلاث جهات وجبال عالية في شمالها سور منيع يصعب اختراقه ولذلك قلما تمكن فاتح منها . ومن الامثلة على النوع الثاني سورية التي ما برحت تخضع للفاتحين منذ اول عصر التاريخ حتى الان ولذلك لم تقم فيها امة واحدة . ومما اضر بسورية الامم القوية الفاتحة التي نشأت حولها فقد استولى عليها البابليون والاشوريون والمصريون والحثيون واليونان والعرب وغيرهم من الامم فكانت في كل عصر تقتبس شيئاً من الامة الغالبة

الا ان مثل هذه الحواجز الطبيعية قد قل فعلها في العصر الحاضر اذ ذلّل الانسان البحار وخرق الجبال كما فعل في نفق سمبلون وسان غوتار في سويسرة ووصل البحار والانهار بعضها ببعض . واذا تم له تذليل الهواء تساوى لديه البحر واليابسة والجبال والاودية وقلت الفروق بين اجناس الناس الى ان تزول على مرور الزمن